تهيئة يزيد لتحمّل المسؤولية

قلب نظام الشورى، وجعل الحكم وراثياً

أما فيما يتعلق بإقناع كبار شخصيات الحجاز، فقد كتب معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة، ليستشير الناس في أمر اختيار خلفٍ له، دون أن يسمي يزيد ولما جاءه الجواب بالموافقة، كتب إلى مروان ليخبر الناس باختيار يزيد، كما كتب إلى عماله يأمرهم بمدحه وتقريظه، وبإرسال الوفود إليه من الأمصار، فأقبلت الوفود من العراق وسائر بلاد الشام تبايعه، وسرعان ما تبين أن المدينة ستكون أكثر المدن الإسلامية معارضة لهذه البيعة حيث برز تيار معارض بزعامة عبد الرحمن بن أبي بكر، وحجته في ذلك أن معاوية يكون قد خرج عن سياسة أسلافه وجعل الخلافة وراثية، وأنكر الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر هذا التدبير. فكتب مروان بذلك إلى معاوية، وتوافق هؤلاء الأربعة أنه إذا كانت الخلافة وراثية فإن حقهم فيها أكثر من حق يزيد، أما إذا كانت بالاختيار لأفضل المرشحين فإن يريد يغدو بعيداً عن كل حق فيها لعدم وجود أي من الصفات المطلوبة فيه .

لكن بيعة الحجازيين كانت ضرورية، لأن الحجاز مهد الإسلام ويعيش فيه الصحابة وأبناؤهم، لذلك كان لا بد لمعاوية من الإقدام على عمل ما لتأمين هذه البيعة، فرأى أن يستعمل اللين أولاً مع المعارضين، فقدم بنفسه إلى المدينة في عام (٥٠هـ/ ٦٧٠م) واجتمع بالعبادلة أبناء الصحابة، وهم: عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير، وأبدى أمامهم رغبته في أخذ البيعة لابنه يزيد فعارضوه، وفشل في استمالتهم. ويبدو أنه قرر أن يتجاوزهم، فعاد إلى دمشق وأخذ يعدُّ العدَّة للحظة الحاسمة دون الالتفات إلى رأي المعارضين، خاصة وأن أهل الشام والعراق بايعوا يزيد.

وبدا لمعاوية أن يحاول مرة أخرى قبل الإقدام على تنفيذ البيعة لابنه واستخدم عامله على المدينة سعيد بن العاص وسائل العنف والغلظة لحمل المعارضين على ذلك، فأبطأوا عنها إلا اليسير منهم لاسيما بنو هاشم.

وفي عام (٥٦هـ/٦٧٦م) أعلن معاوية رسمياً البيعة لابنه يزيد، وجرت احتفالات التنصيب في دمشق وكان الحجاز وحده غائباً عن المشاركة فيها. وخشي معاوية من تطور المعارضة إلى عصيان، فتوجه إلى المدينة ليضمن عن طريق شخصيته ومكانته، تحقيق النجاح في كسب تأييد أهلها وإرغام المعارضين على قبول البيعة ليزيد.

وما كاد يصل إلى المدينة حتى غادرها المعارضون إلى مكة، وبايع من بقي فيها ليزيد. وقرر معاوية أن يجد السير في طلب المعارضين، وقد بلغ به الغضب أشده. وفي المسجد حيث اجتمع بهم، دافع ابن الزبير باسم رفاقه عن موقفهم الرافض، وجرى حوار فاشل ، عندئذٍ أدرك أنه لابد من اللجوء إلى التهديد بالعقاب بعد أن فشلت وسائل الإقناع . واستطاع بالحنكة والشدة حمل المعارضين على الاعتراف بولاية العهد ليزيد، باستثناء الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير .

أما الشخصيات الأموية التي كانت تتطلع نحو الخلافة، فلم تُثر أية مشاكل جدّية في وجه معاوية، بفعل سياسته التي اتبعها تجاه هذه الشخصيات القائمة على التفرقة والإيقاع بينها، خاصة بين مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، واستطاع عن طريق شخصيته وأسلوبه السياسي تجاوزها، واقتنع ،المعارضون أخيراً، أن الأحداث قد تجاوزتهم فمالوا إلى المهادنة .

أما فيما يتعلق بتهيئة يزيد لتحمل المسؤولية، فقد أردفه على رأس قوة عسكرية إلى بلاد البيزنطيين لمساندة الجيش الإسلامي الذي كان يحاصر القسطنطينية آنذاك بقيادة سفيان بن عوف، وحشد معه عدداً من كبار الشخصيات الإسلامية أمثال : ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم . وقد هدف معاوية أن يظهر ابنه أمام المسلمين بمظهر المجاهد، مما يساعده على تأهيله لمنصب الخلافة، ويمحو من ذاكرتهم ما عُرف عنه من تهاون، فيحرز بذلك كسباً أدبياً يرفع من شأنه . أما فيما يتعلق بمبدأ تحويل نظام الحكم، فقد كان على معاوية إقناع الناس بقبول مبدأ الحكم الوراثي وتعيين ابنه يزيد. فهو يمتلك القدرة على تنفيذ ما يريد، وتوظيف ثقله السياسي في إقناع المعارضين، وقد نجح في ذلك، ومهما يكن من امر، فقد خالف معاوية شروط الخلافة، وانتقل بها من خلافة اسلامية شورية الى ملكية وراثية.

ويبدو أن نظام الشورى، الذي طبَّقه الخلفاء الراشدون من قبل، لم يعد نظاماً صالحاً، بعد أن اتسعت رقعة الدولة، وتطورت أجهزتها الإدارية، وانقضى جيل الصحابة، ويلائم هذا النظام البيئات القبلية والبيئة الراشدية بما كانت لها من مقومات خاصة لقرب عهد الخلفاء الراشدين من عهد الرسالة، وإن كان قد أثبت عدم صلاحيته في عهد عثمان بفعل ما نشب من خلافات بين المسلمين تحولت إلى ثورات خطيرة ترتبت عليها أحداث مفجعة، مما دفع معاوية إلى حصر الخلافة في بيت معين مع الاحتفاظ بمظهر البيعة.

سياسة معاوية الخارجية :

وضع معاوية أسساً مدروسة وقواعد ثابتة في سياسته الخارجية، ولكن عهده لم يشهد فتوحات على نطاق واسع، كما كان الحال في عهد الخلفاء الراشدين إنما هذا لم يكن تقصيراً منه بل حسن تقدير

للأمور، وإذ أدرك جسامة المهمة الملقاة على عاتقه في حقل السياسة الخارجية التي تتمثل في تثبيت الفتوحات في المشرق والقضاء على الحركات التمردية، التي كانت تقوم بين الحين والآخر في أنحاء متفرقة من البلاد، نتيجة الشعور القومي لدى الفرس، ومن ناحية ثانية، كان معاوية يعمل جاهداً على نشر الدين الإسلامي بين الشعب الفارسي. ومن أجل ذلك أسكن عشرات الآلاف من الأسر العربية في المناطق الفارسية، وبصفة خاصة في خراسان حتى يكون اختلاط العرب بالفرس سبيلاً إلى نشر التعاليم الإسلامية واللغة والثقافة العربية. ومع هذا، لم يغفل حراسة الحدود، فكانت الغزوات تنطلق من ثغر السند إلى حدود بلاد ما وراء النهر، وهكذا قدر معاوية أن تثبيت الفتوحات ونشر الإسلام في البلاد الشرقية أجدىمن الفتح والتوسع وقد نجحت هذه السياسة في هذا الجناح الشرقي من الدولةالإسلامية.

أما الجناح الغربي، وأعني بلاد الشام ومصر، فكانت المواجهة مع الدولة البيزنطية لا بد منها لسببين: الأول قرب الدولة البيزنطية من مركز القيادة في دمشق. الثاني أن خطر الدولة البيزنطية ظل قائماً، وتهديدها للدولة الإسلامية كان لا يزال مستمراً. وقد وقف معاوية من خلال خبرته السياسية، أثناء توليه بلاد الشام، على أهداف البيزنطيين القاضية بطرد المسلمين من هذا البلد فركز معظم جهوده للتصدي لهم، وإيقافهم عند حدهم، خاصة في ميدان البحر، والبع في سبيل ذلك استراتيجية عسكرية خاصة.

أ– الجبهة الشرقية :

الواقع أنه ما كادت الفتن تهدأ ويستتب الأمر لمعاوية حتى استأنف حركة الفتوح. وامتازت السنوات التي قضاها في الخلافة بالنشاط الحربي الواسع، تجلى على الجبهة البيزنطية، وجبهة شمالي أفريقيا بشكل خاص. أما الشرق، فلم يعرف سوى فتوحات هامشية لا تذكر، إذ اقتصرت معظم الاشتباكات على إعادة إخضاع أهالي البلاد الثائرة . كان المسلمون قد وصلوا إلى كش في أيام خلافة عثمان ولكن حكمهم في تلك المنطقة كان مزعزعاً إلا أنهم عادوا إلى التقدم شرقاً في أيام معاوية، فغزا عبد الله بن سوار العبدي وكان أميراً على ثغر السند القيقان وهي بلاد السند مما يلى خراسان حيث قتل، في حين وصل المهلب بن أبي صفرة في غزواته إلى لاهور، وأخضع قيس بن الهيثم بادغيس وهراة وبلخ بعد أن نقض سكانها الصلح مع المسلمين (وفي عهد زياد بن أبيه، واصل المسلمون تقدمهم فوصلوا إلى كابل وفتحوها بعد حصار، في حين عبر ابنه عبيد الله نهر سيحون على رأس قوة عسكرية ووصل إلى بيكندفاستعانت ملكة تلك البلاد بالترك للتصدي لزحف المسلمين إلا أنهم انهزموا، فاضطرت الملكة خاتون إلى طلب الصلح فصالحها عبيد الله لقاء دفع الجزية، ثم حدث أن ولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان إمارة خراسان فاستغلت الخاتون فرصة تغيير الحكام

ونقضت الصلح وتحالفت جموع من أهل السعد والترك وكش ونسف وتصدوا للمسلمين، والتقى الفريقان ببخارى في رحى معركة كبيرة أسفرت عن انتصار واضح للمسلمين، ودخل سعيد على أثرها مدينة بخاربووأخسمرقاند و فتح ترمذ).

ب- الجبهة البيزنطية:

شهدت العلاقات الإسلامية البيزنطية، ابتداء من منتصف القرن الأول الهجري سلسلة من الأحداث الهامة أثرت في العالمين الإسلامي والبيزنطي وجعلت الصراع العسكري بينهما سجالاً متأرجحاً بين النصر والهزيمة والسلم والحرب وفقاً لمقتضيات الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كل منهما الفضل للخلافة الأموية عامة، ولمعاوية خاصة، في وضع سياسة عسكرية واضحة الأهداف والمعالم ضد الدولة البيزنطية، وتنظيم الحملات لمهاجمة القسطنطينية والحقيقة أن معركة ذات الصواري " حولت العلاقات العسكرية بين المسلمين والبيزنطيين نحو اتجاه جديد في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، إذ إنها اعتبرت المدخل الذي أطل منه الأمويون على العالم الوسيط كقوة بحرية منافسة في المنطقة. كما أنها أضاعت آخر الفرص من البيزنطيين لاستعادة مواقعهم في الشام ومصر، حيث كان اعتمادهم على التفوق البحري لكن انحسار الدولة البيزنطية وانكفاءها إلى ما وراء حدودها في آسيا الصغرى، لم يدفعها إلى التخلي نهائياً عن هذه المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية، لوجودها واستمرارها كدولة كبرى.

لذلك لم يفت على معاوية هدف البيزنطيين، كما لم يتجاهل الفراغ العسكري الذي أحدثوه في المنطقة، فوضع نصب عينيه هدفين : أولهما: إقامة نظام ثابت لحماية المناطق الحدودية والشواطئ الإسلامية من هجمات البيزنطيين وحلفائهم المردة ثانيهما: الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية.

تمثلت أبرز خطوط هذا النظام الحربي في إقامة مراكز دفاعية في مناطق الحدود، وحاميات عسكرية دائمة في المعاقل الأمامية، والممرات الجبلية على تخوم الدولة البيزنطية، وهي التي عرفت باسم (الثغور. إنها مواقع عسكرية متقدمة ملاصقة لحدود العد, ورأى معاوية ضرورة الاهتمام بهذه المناطق الحدودية وتعميرها وتحصينها،فاهتم بمدينة أنطاكية التي كانت معرضة باستمرار للغارات البيزنطية المفاجئة، فأغرى الناس على الإقامة فيها بأن منحهم إقطاعات من الأرض كما نقل إليها في عام (٤٢هـ / ٦٦٢ م) جماعة من الفرس وجماعات من أهل بعلبك وحمص والبصرة والكوفة ، ثم أخذ يوالي تدريجياً تعمير المدن الواقعة بين الإسكندرونة وطرسوس. كما نفذ خطة إعادة استيطان المدن التي خرج منها البيزنطيون بعد الفتوحات الإسلامية.

فبالإضافة إلى أنطاكية وحمص نقل قوماً من فرس يعليك وحمص إلى صور، كما نقل قوماً من زط البصرة، والسيابجة إلى السواحل، وأنزل بعضهم أنطاكية وحتى يقوي معاقل الحدود فتح سميساط وملطية وجدد حصوناً أخرى مثل مرعش والحدث وفتح حصنزبطرة الاستراتيجي وأعاد تحصينه، وأبدى نشاطاً ملحوظاً في ترميم المدن الساحلية وتحصينها لتقوى على صد غارات البيزنطيين من البحر فرقم عكا وصور وحضن جبلة وشحنها بالمرابطة ومصر الطرطوس فيناها وأقطع بها القطائع وارتبط بهذا النظام الدفاعي نظام آخر ذو خصائص هجومية دفاعية مشتركة وهو ما عرف بالشواتي والصوائف إنها حملات دورية منتظمة كانت تتوجه إلى الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى ويشرف عليها قادة اختصاصيون) هدفها السيطرة على الحصون والمعاقل الجبلية المهمة والقيام بغارات داخل الأراضي البيزنطية والتصدي للبيزنطيين إذا ما حاولوا التقدم داخل الأراضي الإسلامية .

ونظراً لأن المعارك والصراعات العسكرية التي كانت تحدث بينه وبين البيزنطيين بمجملها بحرية أدرك معاوية أهمية تعزيز الأسطول البحري ففي:الدفاع عن السواحل .

- غزو الجزر البحرية المواجهة لساحل الشام مثل أرواد وقبرص ورودس ليتخذها مراكز أمامية لتوجيه الغزوات البحرية منها إلى بلاد البيزنطيين. الدفاع عن البلاد المفتوحة والأملاك المكتسبة.

- استمرار العلاقات التجارية الخارجية مع بلاد البحر الأبيض المتوسط خاصةوأن هذا البحر كان لا يزال في قبضة البيزنطيينلذلك وضع مخططاً للتفوق على هؤلاء في البحر وإبعادهم عن السواحل.

وتنفيذاً لهذا المخطط بنى معاوية البحرية الإسلامية، وأنشأ أسطولاً بحرياً، عهد بإدارته إلى عدد من الملاحين العرب من بني الأزد الغساسنة)، وبفضل هذا الأسطول، تمكن المسلمون من إحكام سيطرتهم على سواحل بلاد الشام، وتنفيذ خطة السيطرة على الجزر، وبذلك يكون معاوية أول من نظم أسطولاً بحرياً، وأول من أرسلحملة إسلامية للغزو في البحر المتوسطوغزا المسلمون بقيادة معاوية جزيرة قبرص في عام (28هـ/٦٤٩م) واستولوا عليها. وكان النصر الذي لازم هذه الحملة بداية مرحلة من النشاط البحري للمسلمين الذين قاموا خلال السنوات التالية بسلسلة من الغارات البحرية من قواعدهم في بلاد الشام ومصر تمهيداً لحصار القسطنطينية، وقد رافقت هذه الحملات البحرية، حملات أخرى برية بهدف دراسة الطرق المؤدية إليها.

وأرسل معاوية في عام (٤٩هـ/٦٦٩م) حملة عسكرية برية ضخمة لحصار القسطنطينية بقيادة فضالة بن عبيد الله الأنصاري الذي توغل في عمق الأراضي البيزنطية، حتى وصل إلى خلقدونية

القريبة من العاصمة. وقد أمضى فضالة شتاء ذلك العام في أملاك الإمبراطورية وكان معاوية يمده بالإمدادات والمؤن. وقد قامت إحدى / ٢٢٥ المهمة، وأهمية الحملة أردف معاوية القوات الإسلامية بابنه يزيد على رأس قوة إضافية، مما أنعش آمال المسلمين بمواصلة الحصار واصطدم الفريقان الإسلامي والبيزنطي في معارك التحامية تحت أسوار العاصمة، إلا أن المسلمين لم يحرزوا انتصارات حاسمة، وبالتالي لم يتمكنوا من فتحها، ولعل مرد ذلك إلى : متانة أسوارها، ومنعة قوتها بقيادة سفيان بن عوف بتنفيذ الحصار على العاصمة البيزنطية نقاد المونبعد طريق الإمدادات .

وأخيراً اضطر المسلمون إلى فك الحصار والعودة إلى الشام. وتوفي في هذه الغزوة الصحابي أبو أيوب الأنصاري الذي رافق جيش يزيد، ودفن عند أسوار القسطنطينية والحقيقة، أن هذه الحملة، بالرغم من فشلها من الناحية العسكرية، إلا أنها تعتبر ناجحة من الناحية السياسية، حيث جعلت الأباطرة البيزنطيين يخططون لاتخاذ وسائل أكثر نجاعة للدفاع عن عاصمتهم ضد هجمات المسلمين. فأحدثوا تغييرات في النظم العسكرية والإدارية في الإمبراطورية بشكل عام وفي إقليم آسيا الصغرى بشكل خاص الذي اعتبروه خط الدفاع الأول عن العاصمة .

لم يكن فشل الحملة معاوية عن المضي قدماً في محاولاته لفتح القسطنطينية وأدرك، في الوقت نفسه، أهمية السيطرة على الجزر القريبة منها كعامل مساعد. فبعد جزيرتي قبرص وكوس، فتح المسلمون جزيرة رودس في عام (٥٢هـ/ ٦٧٢ م) كما فتح أسطول إسلامي جزيرة خيوس، وسيطر المسلمون على أزميروليكيلكي يكون معاوية قد أحكم الطوق البحري على العاصمة البيزنطية .

وفي عام ٥٤هـ/ ٦٧٤م بدأ الحصار الثاني للقسطنطينية واستدعى الأمر تعزيز القوة البحرية في مياهها، فانضم إليها أسطول إسلامي آخر بقيادة جنادة بن أبي أمية بعد أن فتح جزيرة أرواد القريبة منها حيث اتخذها المسلمون قاعدة انطلاق، وتخلل الحصار مناوشات بين الأسطولين الإسلامي والبيزنطي، في حين تراشقت القوات البرية الإسلامية المرابطة حول العاصمة، مع الجنود البيزنطيين المرابطين على أسوارها، بالقذائف والسهام)،

استمر هذا الوضع طيلة سبعة أعوام حتى عام (٦٠هـ/ ٦٨٠ م) اقتصرتالعمليات العسكرية على فترتي الربيع والصيف لصعوبة القتال في الشتاء وصمدت المدينة أمام الحصار، فلم يحرز المسلمون انتصارات حاسمة بفعل أن جهودهم تركزت على محاصرة المدينة من جهة البحر، أما الحصار البري فكان مزعزعاً حيث ظلت الطرق البرية وطريق البحر الأسود مفتوحة أمام البيزنطيين مما جعل منها متنفساً وطريقاً للإمدادات والمؤن، وهذا خطأ استراتيجي ترتبت عليه

عدة نتائج بالغة الأهمية، إذ توقف زحف المسلمين إلى أوروبا من جهة الشرق بالإضافة إلى أنه عززمركز الإمبراطورية البيزنطية.

والواقع أنه تضافرت عدة عوامل جعلت المسلمين يفكون الحصار عنالقسطنطينية لعل أبرزها : مناعة أسوار المدينة، رداءة الطقس وقسوته، التيارات المائية الشديدة الانحدار التي كانت تبعد السفن عن الأسوار، عدم إحكام الحصار البري ، استعمال النار الإغريقية من قبل البيزنطيين.

عوامل داخلية تتعلق بكل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية :

ففيما يتعلق بالدولة الإسلامية، نرى أن معاوية وجد نفسه بحاجة إلى هدنة طويلة مع البيزنطيين، بعد أن أدرك أن مدة الحصار قد طالت دون أن يتحقق الهدف، ورأى، بعد أن أحس بدنو أجله، أن من مصلحة المسلمين أن يعود هذا الجيش الضخم المرابط حول العاصمة البيزنطية إلى دمشق تحسباً لأية مشاكل قد تواجه الدولة الأموية بعد وفاته، أما فيما يتعلق بالبيزنطيين، فقد كانت الدولة البيزنطية تواقة إلى إنهاء هذا الحصار عن عاصمتها بعد أن أرهقها وأنهك قواها، ونتيجة للمفاوضات التي جرت بين الطرفين تم الاتفاق على ما يلي: يدفع معاوية جزية سنوية للبيزنطيين مقدارها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية، بالإضافة إلى خمسين أسيراً، وخمسين حصاناً، تستمر الهدنة ثلاثين عاماً .

جــ جبهة شمالي أفريقيا :

قبل أن تتحدث عن فتوح المسلمين لشمالي أفريقيا لا بد لنا من تحديد المناطق الجغرافية التي حدثت فيها الأحداث، وهي تنقسم إلى أربعة أقسام :

١ – برقة وطرابلس .

٢ – إقليم أفريقيا : يقابل تقريباً تونس الحالية، ويعرف بالمغرب الأدنى. المغرب الأوسط : يقابل ما يعرف اليوم بالجزائر.

3- المغرب الأقصى : يقابل ما يعرف اليوم بالمملكة المغربية .

مرت فتوح شمالي أفريقيا بسبع مراحل استكملت خلالها عملية الفتح وانتهت في أيام الوليد بن عبد الملك.

تعد المرحلة الأولى من فتوح المسلمين لشمالي أفريقيا، وهي فتح برقة، استكمالاً لفتح مصر، وقد تمت على يد عمرو بن العاص في عام (٢٢هـ/٦٤٣ م) كما فتح عمر و طرابلس الغرب وصبرانا وأتم فتح فزان . وجاءت الخطوة التالية على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح في عام (٢٧هـ/ ٦٤٨ م)، ففتح سبيطلة وبث جنوده في البلاد فبلغ قفصة وفتح حصن الأجم، جنوبي القيروان .ويبدو أنه اكتفى بهذه الفتوح القليلة، فعاد إلى مصر دون أن يترك أثراً يذكر، إلاأن غزواته التي تمت على هذا النحو ، كانت تجربة مفيدة للمسلمين، إذ أوقفتهم علىحالة هذه البلاد وعلى مدى أهميتها إليهم، وشغل المسلمون، بعد ذلك بمشاكلهم الداخلية، فتوقفت حركة الفتوح، مؤقتاً. وعندما استقر الأمر لمعاوية استأنف النشاط الجهادي، فأرسل، في عام (٤٥هـ/٦٦٥م) ، حملة بقيادة معاوية بن حديج السكوني، وأمره القيام بغارات على المنطقة الواقعة غربي طرابلس وانتهى هذا القائد إلى سهل قمونية إلى الجنوب من قرطاجنة في هذه الأثناء، أقام القائد البيزنطي نقفور معسكره في مدينة سوسة الساحلية، مما جعل أمر الصدام بين الطرفين حتمياً. وفعلاً دارت بينهما مناوشات طفيفة انسحب على أثرها نقفور من المنطقة، في حين لم يستثمر ابن حديج انتصاره بتركيز أقدام المسلمين فيها بالرغم من أنه فتح سوسة وجلولاء وبنزرت وجزيرة جربة ويبدو أن معاوية أراد إعطاء حركة الفتوح دفعاً تصعيدياً، وقد تمثل ذلك بفصل برقة وطرابلس الغرب من مصر في عام (٤٩هـ/٦٦٩م) على الأرجح، وولى عليها عقبة بن نافع الذي سطر التاريخ أعماله الباهرة وبتولية عقبة، تبدأ المرحلة الثانية من مراحل فتوح شمالي أفريقيا، وهي مرحلة مهمة لأن هذا القائد سينفذ استراتيجية جديدة سوف تؤمن الاستقرار للمسلمين في المنطقة، ليصبح المغرب جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي .

بدأ عقبة نشاطه بفتح عدد من المواقع الاستراتيجية في المغرب الأدنى منفذاً خطة محكمة تقضي بتشكيل حاميات عسكرية في المدن والمواقع، التي يتم فتحها يهدف الاحتفاظ بمكتسبات الفتح، مثل ودان وفزان وخاور ووغدام وأدرك من خلال تجربته السابقة، أن أهل شمالي أفريقيا يدخلون في طاعة المسلمين طالما بقي هؤلاء في بلادهم، فإذا ما انصرفوا عنهم ارتدوا عن الإسلام وشقوا عصا الطاعة، وكانت برقة وزويلة قاعدتا الفتح الإسلامي لشمالي أفريقيا منتظر فتين مما يساعد أهل المغرب على الخروج على المسلمين في كل مرة ينتهون فيها من غزوهم لها، فرأى أن ينشئ قاعدة إسلامية في شمالي أفريقيا تكون مركزاً لحكم إقليمي ثابت الدعائم، منها تخرج الجيوش الإسلامية للفتح والاستقرار في المناطق المجاورة، فضلاً عن تأمين الخطوط الدفاعية الضرورية للمسلمين في هذه المنطقة، بالإضافة إلى هدف عقائدي في أن تكون منطلق الدعوة التبشيرية بين البربر سكان شمالي أفريقيا الأصليين. فاختط القيروان في عام (٥٠هـ/ ٦٧٠م) في منطقة

صحراوية تقع إلى الجنوب من قرطاجنة ويتميز موقعها الجغرافي بأنه يقيها التعرض لغزوات البيزنطيين البحرية، ويتوافر فيها طيب المراعي, وجاء تأسيسها دليلاً على الإصرار على مواصلة الفتح، وقامت هذه المدينة بدور كبير في فتح شمالي أفريقيا كلها، والانطلاق إلى الأندلس، بالإضافة إلى نشر الدين الإسلامي في المغرب، وأضحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية, ويبدو أن سياسة عقبة التي انتهجها مع البربر قد اتسمت بالعنف، مما جعل الأمن متعذراً، وأدى بهؤلاء إلى التحالف مع البيزنطيين.

وقد أدرك معاوية خطر هذهالسياسة، فعزل عقبة في عام (٥٥هـ/٦٧٥م) وولى مكانه أبا المهاجر دينار الأنصاري والراجح أن حادثة العزل تدور في نطاق العلاقات الشخصية بين القادة والولاة والخلافة .

وبعزل عقبة، وتعيين أبي المهاجر تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا، وقد اتسمت بمنهجية أكثر اعتدالاً في التعامل مع البرير مما مهد الطريق لتغلغل الدين الإسلامي بين السكان وأدرك أبو المهاجر الدور البيزنطي في تأليب البربر ضد المسلمين، فقرر أن يضع حداً لهذا الدور، وتتضح هذه السياسة عندما نلاحظ أن حملاته توجهت كلها ضد الوجود البيزنطي في منطقة الساحل، خاصة عاصمتهم قرطاجنة، فهاجمها وأجبر أهلها على طلب الصلح، وفتح جزيرة شريك الاستراتيجية القريبة منها، واتخذها قاعدة عسكرية ليراقب تحركات البيزنطيين، وبذلك حقق أول نصر عسكري وسياسي عليهم تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، واستقر بها، ومنها أخذ يبث الدعوة الدينية بين البرير في المغرب الأدنى الذين تقبلوها ودخلوا في الإسلام. وبعد أن اطمأن أبو المهاجر على أوضاع المغرب الأدنى، استأنف حركة الجهاد لفتح المغرب الأوسط، وقد جمعت البربر والبيزنطيين في هذا الإقليم مصلحة مشتركة تتمثل بوقف التقدم الإسلامي، ثم طرد المسلمين من المغرب الأدنى.

ثم حدث أن تابع أبو المهاجر حملاته ضد الوجود البيزنطي، ففتح ميلة التي كانت قبيلة أوروبا البربرية تتزعم المغربين الأوسط والأقصى بقيادة زعيمها كسيلة بن لمزم الذي أدرك مدى ما يشكله المسلمون على وطنه ودينه النصراني من خطر، لذلك قام ليواجههم بشراسة ولدرء هذا الخطر الداهم جمع كسيلة جيشاً كثيفاً، وعسكر في تلمسان بانتظار الصدام المرتقب مع أبي المهاجر. وفعلاً التقى الجمعان ودارت بينهما رحى معركة عنيفة اعتبرها كل طرف معركة مصير انتهت بانتصار المسلمين، وتمزق جيش كسيلة وتشتت في الصحراء وأسر كسيلة فعمل إلى أبي المهاجر الذي عامله معاملة طيبة حيث طمع في إسلامه لأنه لو أسلم فسيكون إسلامه سبباً في إسلام قومه بفضل مكانته الكبيرة بينهم وفعلا دخل كسيلة وقومه في الإسلام واستخدمهم أبو المهاجر في فتح للسان .

وعاد أبو المهاجر إلى القيروان بعد أن اطمأن إلى أوضاع المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر، حيث راح يراقب تحركات البيزنطيين ونشاطهم، ويعمل على إزالة نفوذهم في الشمال. لكن لم يطل به المقام، فقد توفي مولاء مسلمة بن مخلد، والي مصر، في عام (٦٢هـ/ ٦٨٢م وكان سنداً قوياً له، فأعاد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع إلى أفريقيا للمرة الثانية، وعزل أبا المهاجر. فابتدأت بذلك مرحلة أخرى من مراحل فتوح شمال أفريقيا هي المرحلة الرابعة.

سياسة معاوية الإدارية :

عرف عن خلفاء بني أمية، خاصة الكبار منهم مثل معاوية بن أبي سفيان وعيد الملك بن مروان، حرصهم على حسن إدارة دولتهم والسهر على مصالح الرعية لينتظم لهم أمر الملك، فلم يدخروا وسعاً في اقتباس الأساليب الإدارية النافعة لتطبيقها في دولتهم وإنشاء الدواوين والأجهزة الإدارة مرافق الدولة .

شهدت الإدارة أو ما عُرف بالدواوين، في عهد معاوية تطويراً ملازماً مع التغيير الذي طرأ على نظام الحكم، وخطت خطوات سريعة إلى الأمام بفعل انفتاحه الشديد على حضارات الروم والفرس ، ذلك أنه تابع ما بدأه عمر بن الخطاب في نطاق الإدارة، ولكن دون أن يستكمل الشكل النهائي لها وقد استعان معاوية بأشخاص من النصارى ممن عملوا في الإدارة البيزنطية أمثال سرجون بن منصور وابنه منصور بن سرجون، بإدارة ديوان المال .

والواقع أن جهود معاوية انطلقت من مؤسستين، ديوان الخاتم وديوان البريد، في الوقت الذي عرف فيه المسلمون ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل .

أنشأ معاوية ديوان الخاتم حتى لا تخرج التوقيعات بدون ختم فلا يعلم ما تحتويه من أسرار غير الخليفة، ولا تتعرض للتزوير والتعديل، بالإضافة إلى أن هذا الديوانكان يستقبل التقارير التي ترفع إلى الخليفة من الولاة، كما أنشأ معاوية ديواناً للبريد، حين اتسع نطاق الدولة، وأضحى من الضروري نقل الرسائل بسرعة متناهية لتسهيل الاتصال السريع بين الخليفة وبين عمال الأقاليم . وكان لهذا الديوان مهمتان الأولى : نقل الرسائل من دار الخلافة وإليها، والثانية : أن موظفي هذا الديوان كانوا عيوناً للخليفة يراقبون الولاة والعمال في أعمالهم ومسلكهم ويرفعون إليه تقارير بكل ما يصل إلى علمهم من ذلك حتى يكون الخليفة على علم بأحوال الولايات وما يحدث فيها وقد بذل معاوية نفقات باهظة في تطوير هذا الديوان وتنشيطه من خلال تزويده بعدد من الموظفين والخيول والمحطات المجهزة بما يحتاج إليه ناقل الخير. وأضحى في إدارة شؤون الدولة والجدير بالذكر أن البريد كان محصوراً في نقل المعاملات الرسمية، والتقارير الصادرة عن الدولة فقط .وفاة معاوية

لما مرض معاوية مرض الموت كان ابنه يزيد غائباً عن دمشق. فاستدعى الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة وأدى إليهما وصيته إلى يزيد ثم توفي في (شهر رجب عام ٦٠هـ/ نيسان عام ٦٨٠م) وكانت أشد الهواجس التي تنتابه وتؤرقه مبعثها أربعة من الزعماء هم عبد الله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر.